

مطابرة الحُجَّاب الأمويين بالأندلس في الحياة الأدبية والعلمية

(138-422هـ/756-1031م)

الدكتور وهرازي قدور، جامعة تلمسان الأسناذ مرزقي عبد الرحمن، جامعة تلمسان

ملخص:

امتاز الحجاب الأمويون بالأندلس بالكثير من الخصائص الإيجابية وبالعديد من المهارات الفردية فبالإضافة إلى النباهة والذكاء والفراسة فقد عرفوا بالفروسية والقوة والقدرة على القتال وقيادة الجيوش، واتخاذ القرارات المناسبة والموفقة، بالإضافة على التحكم في اللغة والتفوق فيها فكان منهم الشاعر الحكيم، والناثر الخطيب، وسنستعرض في هذا المقال مجموعة من الحجاب الذين عرفوا بنباهتهم العلمية والأدبية، وما مدى تأثيرهم على أداء مهامهم.

الكلمات المفتاحية: الحجاب، الأمويون الأندلس، الأدب، اللغة، الشعر.

Abstract:

The chamberlains of Umayyad Spain were distinguished by many positive qualities and unique skills in addition to vigilance, intelligence, and their keen powers of discernment. They were also known for their chivalry and strength and ability as fighters and leaders of troops and their capability of making the appropriate decision. They had an excellent command of language both prose and verse. In this article we will present a number of chamberlains who were famous for their intellectual and literary prowess, and the extent of its influence on the execution of their duties.

Key Words: Chamberlain, Umayyads, Andalus, literature, language, poetry.

عرفت الأندلس في العهد الأموي (138-422هـ/756-1031م) منصب الحاجب

في أرقى أشكاله وأكثره تطورا، فقد كان الحاجب بمثابة المشرف على عمل الوزراء والمكلف بتقييم عملهم وعرض عملهم على الأمير أو الخليفة، ولا شك أن الوصول إلى هذا المنصب المهم كان يتطلب مميزات ومؤهلات أدبية وذهنية وشخصية مختلفة تظهر فيمن يريد الوصول إلى هذا المنصب، فتساعده على أداء الأمثل لمهامهم بل تجعله يقوم بها ببراعة تامة.

فقد تميّز الحاجب "عبد الرحمن بن عبد الواحد بن المغيث" بمقدرته العسكرية الفائقة وقيادته للصوائف والحمالات ضد المماليك النصرانية في الشمال¹، بالإضافة إلى أنّه تولّى الكتابة للأمير عبد الرحمن الأوسط²، وقد كان بحقّ كما وصفه ابن حيان: «أكمل من حمل هذا الاسم (الحاجب)، وأجمعهم لكل جملة حسنة»³.

وقد كان هذا الحاجب شاعراً مُفوّهاً، وأنشد له "ابن حيان" في رثاء "الحكم بن هشام" وتهنئة ولده الأمير "عبد الرحمن بن الحكم" بالحكم الأبيات التالية:

كان الزمان مرزاً بخليفة	أودى فكاد نهارنا أن يظلما
حتى إذا قعد الإمام لبيعة	كالغيث شح بوابله ثم انهمي
لله أية بيعة ما أعظما	وأجل فخرا في الأنام و أفخما
أعطت قريش بيعة مرضية	لإمامها الملك الكريم المنتمي
وبدا كمثل البدر ينصدع الدجى	عنه ويكشف نوره ما أبهما
لله أنت أبو المطرف في الوغى	ولخائف ولمعتف قد أعدما ⁴ .

ومن أهم مميّزات الحاجب "عيسى بن شهيد" حسن اختياره لوزراء حكومته ورجال خدمته مما جعله موقفاً في عمله، وقد حرص على إسداء النصح لهم بما يُحسّن من مستوى آدائهم لمهامهم، ثم رعايتهم حتى يصلوا إلى مراتب الدولة⁵؛ فقد نصح "عبد الواحد الاسكندراني"، بالإمساك عن الغناء، ثم قرّبه من الأمير عبد الرحمن الأوسط فاستندمه، ولم تزل عنايته تصحبه حتى ولّاه الوزارة والمدينة⁶؛ وكان قد أعجب بطريقة عمل كاتبٍ عيّنه حين خرج إلى إشبيلية غازياً، وهو "محمد بن موسى الغافقي"، فصحبه معه إلى قرطبة واستوزره⁷، ولم يتوقّف أمره عند هذا الحد؛ بل أصبح وكيل ولي العهد الأمير "محمد بن عبد الرحمن"⁸. وسر إعجاب الحاجب بعمل الكاتب هو حبه للأدب لأنّه لا يمكن له إتقان عمله دون أن تكون له موهبة أدبية كبيرة.

وكان الحاجب "هاشم بن عبد العزيز" مميّزاً كذلك، فقد وصفه "ابن الأثير" قائلاً: «واجتمعت فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة وقرض الأشعار البديعة»⁹؛ لكن رغم كل هذا المديح فقد

نسب إليه الكثير من المؤرخين سبب الفتنة التي حدثت زمن الأمير "محمد"، وذلك لسوء
تصرفه¹⁰.

ولهاشم في مدينة "البيرة" يذم وروده عليها وهي مكان أوليته:

إذا نحن رحنا عنك يا شر بلدة فلا سقيت رباك صوب الرواعد
ولا زال سوط من عذاب منزل على قائم من ساكنيك وقاعد

فأجابه فتى من أهلها المتأدبين:

لقد حرم التوفيق من ذم بلدة يروح بها في نعمة وفوائد
ومن يتمنى سوط خزي منزل على قائم من ساكنيها وقاعد
فإن كنتم لم تحمدوا ما اخترتم فكل لكل لائم غير حامد¹¹.

وله شعرٌ كتب به إلى الوزير وليد بن غاتم¹²، وهو في أسره:

فكم غصة بالدمع نههت خوف أن يسر بما أبدبه شنان كاشح
تحاملت عنه ثم نادمت في الدجي نجوم الثريا والدموع سوافح¹³.

وكان سبب نكبة الأمير "المنذر" لحاجبه هاشم أبيات من الشعر رثا بها الأمير "محمد"؛

وكان له من الشعر الكثير يستعطف به الأمير بعد سجنه:

وإني عداني أن أزورك مُطَبَّق وباب منيع بالحديد مُضَبَّب
فإن تعجبي يا عاج ممًا أصابني ففي ريب هذا الدهر ما يتعجب
وفي النفس أشياء أبيت بغمها كأني على جمر الغضا أتقلب
تركت رشاد الأمر إذ كنت قادراً عليه فلاقيت الذي كنت أرهب
وكم قائلٍ قال انج ويحك سالماً ففي الأرض عنهم مُستراد ومذهب
فقلت لــــه: إن الفرار مذلةٌ ونفسي على الأسواء أحلى وأطيب
سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك مسروراً بحالي فإنه سينهل في كأسٍ وشيكاً ويشرب¹⁴.

وقد كان الحاجب "جعفر المصحفي" من أهل الأدب البارِع، وله شعر كثير يدل على طبعه وسعة أدبه¹⁵، فقد أنشد يهنئ الخليفة "الحكم المستنصر" على ميلاد ولي العهد "هشام":

كريم يستفيد على كرام	هنيئاً للأنام وللإمام
ومأمول لآمال عظام	مُرَجَّى للخلافة، وهو ماء
فلم تعلم بغاشية الظلام	أضاء على كريمته ضياه
ويين ضلوعها بدر التمام ¹⁶	ولم لا يستضاء بجانيها

وله في وصف سوسنة قائلاً:

يا ربُّ سوسنة قد بُتُّ أثلها	وما لها غير كعم المسك من الريق
مُصفرة الوسط مبيض جوانبها	كأنها عاشق في حجر معشوق ¹⁷ .

ووصف تفاحة بقوله:

لَعْمَرِي لَيْنٌ أَهْدَيْتُ نَفْسِي وَمَا حَوْتُ	فَأَنْتَ بِهَا مِنِّي أَحَقُّ وَأَمْلَكُ
وَلَكِنِّي أَهْدِي الَّتِي لَا تَرُدُّهَا	يَمِينٌ وَلَا فِيهَا لِدِي اللَّحْظُ مَتْرَكُ
تناولتها من غصنها وكأنها	من الحسن ذاك الناجم

المتفلك¹⁸.

ووصف سفرجلة قائلاً:

ومصفرة تختال في ثوب نرجس	وتعقب عن مسك ذكي التنفس
لها ريح محبوب وقسوة قلبه	ولون محب حلة السقم مكتس
فصُفرتها من صُفرتي مُستعارة	وأنفاسها في الطيب أنفاس مُؤنسي
فلما استتمت في القُصيب شبابها	وحاكت لها الأنواء أبراد سُندس
مددت يدي باللُطف أبغي اقتطافها	لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي
وكان لها ثوب من الرُعب أغبر	يرف على جسم من التبر أملس
فلما تعرّت في يدي من لباسها	ولم تبق إلا في غلالة نرجس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره	فأذبلها في الكف حر تنفسي ¹⁹ .

فلما نكبه الحاجب الذي خلفه "محمد بن أبي عامر" وسجنه، استعطفه واستشفع كثيراً
فلم ينل شفاعته:

عَفَا اللهُ عَنْكَ أَلَا رَحْمَةً تَجُودُ بِعَفْوِكَ إِنْ أَبْعَدَا
لَيْنِ جَلِّ ذَنْبٍ وَلَمْ أَعْتَمِدْهُ فَأَنْتَ أَجَلٌّ وَأَعْلَى يَدَا
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طُورَهُ وَمَوْلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
أَقْلَنِي أَقَالَكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَقِيكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى²⁰.

وبلغته أن أقواماً توجعوا له، وتفجعوا مما وصله، فكتب إليهم:

أَحْنُ إِلَى أَنْفَاسِكُمْ فَأَظْنُهَا بَوَاعِثُ أَنْفَاسِ الْحَيَاةِ إِلَى نَفْسِي
وَإِنْ زَمَانًا صَرْتُ فِيهِ مَفْنَدًا لِأَثْقَلِ مِنْ رِضْوَى وَأَضْيِقِ مِنْ رَمْسِي²¹.

وقد كان "المنصور ابن أبي عامر" أشهر الحُجَّابِ دون منازع، فقد تميز بطموحه الذي
فاق به الآفاق. فتسلق سلّم الجحد درجة درجة حتى وصل إلى مبتغاه فحقّق مناه، وحكم
الأندلس دون أن يشاركه في ذلك أحد حتى الخليفة نفسه. وقد اجتمعت فيه صفات ومميزات
عديدة تفوق الحصر؛ ومنها سعة علمه فقد عين في منصب القضاء وكان لا يُعين فيه إلا مُتَّفِقه
في الدين.

«وقد كان لـ "ابن أبي عامر" لما تولى تمكن من الحكم مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل
العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بقرطبة»²².

وقد اعتنى وتشدّد في جودة الكتب التي تبعث إليه من خلال جودة النص ونوعية المداد،
حتى لقد أصدر عهداً يوبّخ فيه العُمال لاستكتابهم الجهلة الذين لم يبلغوا إحكام الخط وتمييز
أنواع الرق والمداد، وهُدّد من يكتب في رقّ رديء أو مداد دني أو خط خفي فيه لحن أو بشر
فإنه معزول وسيغرم المال الذي ذُكر في الكتاب²³.

«وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمُصلى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا
يرجع إلى قصره، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد، فتتبعه عساكره
به أولاً فأولاً، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر. غزا في أيام
مملكته نيفاً وخمسين غزوة وقد ذكرها ابن حيان في كتابه "المآثر العامرية"، واستقصاها كلها

بأوقاتها وذكر آثارها فيها؛ وفتح فتوحاً كثيرة، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله، وملاً الأندلس غنائم وسبباً من بنات الروم وأولادهم»²⁴.

«وكان في أكثر زمانه لا يُجَلُّ بأن يغزو غزوتين في السنة، وكان كلما انصرف من قتال العدو يأمر بأن يُنفض غبارُ ثيابه التي حضر فيها معمعة القتال، وأن يجمع ويُحتفظ به؛ فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن يُنثر على كفنه بعد وضعه في قبره»²⁵.

وكان كمن سبقه من الحُجَّابِ ناظماً للشعر، فقد قال مُفتخراً:

رميت بنفسي هول كل عزيمة وخاطرت والحر الكريم مخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع وأسمر خطي وأبيض باتر
ومن شيمي أبي علي كل طالب أجود بمال لا تقيه المعاذر
وإني لرجاء الجيوش إلى الوغي أسود تلاقيها أسود خوادر
لسدت بنفسي أهل كل سيادة وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة على ما بنى عبد الملك وعامر
رفعنا المعالي بالعوالي حديثه وأورثناها في القديم معافر²⁶.

وهكذا امتاز الحُجَّابِ بالأندلس بشخصيات قوية، وكانت قوتهم مستمدة من تنوع معارفهم وتجاربهم، فكان منهم الشاعر البليغ، والقائد المحنك، والذكي المقتدر لعواقب الأمور، وكانت الحجابة منصباً إدارياً له قوانين تضبطه، فحُصِّص له راتب معين، وعُيِّن له موقع معروف في الاحتفالات والاستقبالات.

الهوامش:

- 1- ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، ج4، ص154.
- 2- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، المقتبس من أبناء أهل الأندلس. تحقيق: محمود علي مكي. بيروت: دار الكتاب العربي، 1393هـ/1973م. القطعة 02، ص170.
- 3- نفس المصدر. ص165.

- 4 - ابن الأبار، أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السرياء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف. ط2، 1985، ج1، ص135.
- 5 - ابن حيان، المقتبس، ق02. ص169.
- 6 - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب: بيروت القاهرة، 1989، ص89.
- 7 - نفس المصدر، ص90.
- 8 - نفس المصدر، ص93.
- 9 - ابن الأبار، الحلة السرياء. ج1، ص137.
- 10 - ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف. ط2، القاهرة: دار المعارف، 1963. ج01، ص53.
- 11 - ابن الأبار، الحلة السرياء. ج1، ص142.
- 12 - وليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ولي للأمير محمد بن عبد الرحمن خطي الوزارة والمدينة وقاد جيش الصائفة لابنه عبد الرحمن بن محمد وذكر ابن حيان من وفور هذا الجيش ما يستغرب واختص وليد هذا بصداقة هاشم بن عبد العزيز وإياه خاطب من موضع أسره دون الوزراء وهو قام بعذره عند الأمير محمد فشكر وفاؤه وكان كاتباً أديباً مرسلًا بليغاً وابناه محمد وعبد الرحمن من أهل الأدب والبلاغة والشعر ومحمد أبعدهما شأوا في ذلك وقد عاشر المطرف ابن الأمير محمد على الأدب وكتبه بالشعر وولي المدينة والوزارة والكتابة وارتفع قدره في الدولة، وتوفي وليد في شعبان سنة اثنتين وسبعين ومائتين، ابن الأبار، الحلة السرياء. ج2، ص374.
- 13 - ابن الأبار، الحلة السرياء. ج1، ص141.
- 14 - ابن الأبار الحلة السرياء. ج1، ص140. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة). عمان: دار الشروق. ط1، 1997. ص89. عمر فروخ، المرجع السابق، ج4، ص134.
- 15 - عبد الواحد المراكشي، المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق: الأستاذ محمد سعيد العريان. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات الشرقية (لجنة إحياء التراث)، 1383هـ/1963م. ص62.
- 16 - المراكشي ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب. بيروت: مكتبة صادر، د.ت. ج02، ص353.
- 17 - ابن الأبار، الحلة السرياء. ج1، ص261. إحسان عباس، المرجع السابق. ص96.
- 18 - ابن خاقان، أبو النصر الفتح، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. تحقيق مديحة الشرقاوي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. ط01، 1422هـ/2001م. ص60. ابن الأبار، الحلة السرياء. ج1، ص261.
- 19 - ابن خاقان، المصدر السابق. ص59. ابن الأبار، الحلة السرياء. ج1، ص262.
- 20 - إحسان عباس، المرجع السابق. ص90.
- 21 - ابن خاقان، المصدر السابق. ص64.

- 22 - المراكشي، المصدر السابق. ص83.
- 23 - إحسان عباس، المرجع السابق. ص96.
- 24- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق. ص83.
- 25 - نفس المصدر. ص84
- 26 - نفس المصدر، ص275. عمر فروخ، تاريخ الادب العربي، الأدب في المغرب والأندلس، دار العالمين بيروت، 1984، ج4، ص317.
- المصادر والمراجع:**
- ابن الأبار، أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السرياء. تحقيق: حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف. ط2، 1985، ج1.
- ابن خاقان، أبو النصر الفتح، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس. تحقيق مديحة الشرفاوي. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية. ط01، 1422هـ/2001م.
- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقيق: محمود علي مكي. بيروت: دار الكتاب العربي، 1393هـ/1973م. القطعة 02.
- ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، ج4.
- ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف. ط02، القاهرة: دار المعارف، 1963. ج01.
- عبد الواحد المراكشي، المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق: الأستاذ محمد سعيد العريان. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات الشرقية(لجنة إحياء التراث)، 1383هـ/1963م.
- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الاياري، دار الكتاب: بيروت القاهرة، 1989.
- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة). عمان: دار الشروق. ط1، 1997.
- عمر فروخ، تاريخ الادب العربي، الأدب في المغرب والأندلس، دار العالمين بيروت، 1984، ج4.